المحاضرة الأولى: في التطور الدلالي

علم الدلالة: حديث النشأة نظريا، لكنه متجذر في التراث اللغوي العربي، والغربي كذلك، ولقد نشأ علم الدلالة كغيره من العلوم ارتباطا بالقرآن الكريم، وذلك لمعرفة دلالات الألفاظ القرآنية، التي استُشكل على العرب فهمها، وهي ما يسمى بغريب الألفاظ (غريب القرآن، والحديث، واللغة)

كثيرةٌ هي الموضوعات التي يتناولها علم الدلالة من بينها مثلا الترادف، التضاد، **لا يوجد ترادف في القرآن الكريم** (شِرعة ومنهاجا) في قول الله عزَّ وجلَّ: (لكلٍّ جعلنا منكم شِرعة ومنهاجا) المائدة 48

فالشِّرعة قال العسكري لأول الطّريق، والمنهاج لبقية الطريق، أي لكلِّه، ولقد كان هذا العلم من العلوم المساعدة على فهم القرآن الكريم.

محاولة معرفة المحكم، والمتشابه، المجمل والمفصَّل، والنصُّ والظاهر، والباطن وغيرها، والزمخشري في كتابه أساس البلاغة، قضية الحقيقة والمجاز، السيوطي، ابن جني في الخصائص، ابن فارس، ثم علاقة الألفاظ بالمعاني أهي اعتباطية أم طبيعية؟ قال الجرجاني إنها اعتباطية، لو أننا وضعنا ربض مكان ضرب لما كان في ذلك فساد في اللغة.

فكرة التطور الدلالي[1] قائمة على الدلالة وليس على المعنى[2]، ثم يتضح حين توظيف مصطلح التطور، وأن هذا الأمر غير مخصوص باللسانيات الوصفية، إنما باللسانيات التاريخية، ذلك أن المنهج ههنا قائم على دراسة تطور دلالات الألفاظ اللغوية عبر الحقب اللغوية الزمنية.

---

[1] التطور الدلالي هو انتحاء الكلمة نحو أربعة مواضع حدها العلماء، وهي كالتالي: اتساع الدلتالة، وتخصيصها، وانحطاط الدلالة وارتقاؤها، وكل هذه الأمور يحكمها أمران هما: التدرج الدلالي، واللاقصدية، والمقصود بالتدرج الدلالي هو عدم معرفة زمن وقوع الدلالة الثانية أو الثالثة، أو حتى الأولى، إلا فيما يخص القرآن

يتم الاعتماد في معرفة هذا الأمر على المعاجم اللغوية، المعاجم التاريخية (معجم أكسفورد مثلا، the profesor and the madman، لمعرفة الأصل الأول للكلمة أي معناها بعد تجريدها، التجريد هو نزع الزوائد المتعلقة بالكلمة(تختلف العربية على اللهجات الأوروبية في هذا، لكونها لغة اشتقاقية، والأخرى إلصاقية، وكذا المعجم التاريخي للغة العربية)

مثال الاشتقاق: لا نجد أن الانشقاق/ الشق الذي يرتبط بالأرض في العربية فقط هو من يرتبط بالماء ليحيله جذرا مائيا لا يخرج بعد ذلك عن هذا المعنى، ومنه الاشتقاق كمصطلح نحوي في كل اللغات، إننا سنجد هذا حاضرا في الأمازيغية على اعتبار أنها عروبية قديمة (خشيم، 2001) وكذلك سنجده في الفرنسية والانجليزية تحت اصطلاح: dérivation/derivation.

لقد ورد الاشتقاق كمصطلح نحوي في الفرنسية تحت الجذر rive/riv، ومنه مفردات أخرى متعددة، ولقد ورد في القاموس التأثيلي للغة الفرنسية تحت التسميات التالية: rive/ river/ rivière، وكل هذه التسميات مرتبطة من حيث الجذر بالماء، أو بتحويل مجرى الماء، أو بعلاقة مجرى مائي مع البحر، أو غير ذلك مما يلج كلّه في الحقل الدلالي/ المفهومي للماء بداية ثم للاشتقاق، وفي الفرنسية أيضا نجد التعبير التالي: (wartburg, 2008, p. 188)

Terraine qui borde un fleuve, ***une rivière***; un étang ou un lac

---

الكريم والحديث النبوي الشريف، والتطور الدلالي هذا مخصوص بطول المدة الزمنية، ولا يُكاد يُستطاع بتحديد مداها، وهو محكوم بأمور سياسية، واقتصادية، ودينية وغيرها.

[2] التفريق بين الدلالة والمعنى، يكون من ناحية أن الدلالة شاملة لما هو لغوي وغير لغوي، أي العلامات غير اللغوية والتي تدرسها السيمياء، ونحسب أن المعنى أضيق، من حيث أنّه خاص بما يتمثّل به اللفظ اللغوي في القلب كصورة، إن المعنى هو ما يحصل من اللفظ كصورة تثبت في ذهن المستمع قصدها المتكلم، ولذا يقال أنا أعني هذا، وهذا معنى كلامي، أما المفهوم فمرتبط بالعقل، ولذا اختص المصطلح بالحقل المعرفي، لأنه معجم قطاعي لا يفهمه أي لا يعقله إلا أصحاب ذلك العلم.

والتي تعني: **الأرض التي تحدُّ نهرا أو بركة أو بحيرة**

وفي القاموس التأثيلي للغة الفرنسية لأوسكار بلوش ووالتر فون وارتبوغ:

Dériver : détourner une ***eau de son cour***.

ثمَّ: ***rivière*** le dé***riv***ation d'une، والأصل أن كلمة arriver الفرنسية كانت تدلُّ كما تشير بنيتها على الوصول إلى الشاطئ، ثم صارت تُستعمل في كل وصول، لا نجد هذا في الفرنسية فقط، وإنما في اللَّهجات العُروبية القديمة، ومنها الأمازيغية، التي نجد فيها لقبا (اسم عائلة) من مثل **أشرفي** أو **أشاريف** والذي يعني الماء،، وبيان ذلك أن الشِّين في هذه الألقاب تعني المحلية، أي المكان، ويعني الجذر المشترك (ر ي ف/ ريف) والذي هو نفسه **riv** في الفرنسية والانجليزية، الماء، أو لنقل بإضافة الشين شاطئ الماء، أو شاطئ الواد، وليس يثبت هذا تأثيلا فقط، إنما سنجد حقّاً أن كل من له لقب يحمل هذا الجذر المعجمي، يقطن/ كان يقطن في الأصل في منطقة تقع بمحاذاة الواد أو النهر.

يمكننا أن نبسط أكثر حينما نقول إنَّ **أشاريف** هي نفسها **أشاريب** بقلب الفاء باءً لتقاربهما مخرجا، وتعني حرفيا شاربا الواد، وأشاريف أمازيغية ومعرّبها أشاريب، وأصل التحليل في الطوبونيميا هو هذا، ذلك أن مناطق هذه الألقاب تخضع للمقاربة **العربوأمازيغية** والتي تقضي أن بأن كل لقب أو تسمية منطقة بالأمازيغية على أساس أنها اللغة الأم تاريخيا، لها ما يقابلها من اللفظ المعرّب بعد التعريب الذي حدث في هذه المناطق والذي يُجهل تاريخه الدقيق.

حينما نعود إلى الانجليزية سنجد أن derivation، من الفعل derive، والذي تأثيله كالتالي:

Lat 14c,descend from ; from old french ***deriver*** (**to flow**; **pour out**; **derive**; **originate**) from latin ***derivare*** (to lead or draw off (***a stream of water***) from its

source (in late latin also «to derive») from phrase de rivo (de «from»+ rivus «**stream**» from pie root *rei-«to run,**flow**»)

يحدر الجذر من الفرنسية القديمة، وبالضبط في القرن 14، والذي يعني (يتدفق، يصبُّ، يشتق، ينشأ) وقبله من اللاتينية، حينما كان يعني تحويل تيار من الماء عن مصدره/مورده، ومن المعاني أيضا في اللاتينية المتأخرة، التيار، ويقصد تيار من الماء، ثم بمعنى التدفق أيضا.

ثم سنجد أيضا من القرن السابع عشر وبالضبط: 1660 ما يلي: «arise, ***spring***» والتي تعني حرفيا جداول الماء التي تنشأ في الربيع، وبعدُ فإن الاشتقاق كمصطلح في حقل الدراسات اللغوية يحمل جذرا مائيا قولا واحدا، في الانجليزية والفرنسية، وفي الأصل الذي هو اللاتينية، كما في العربية والأمازيغية، تجدر الإشارة إلى أن مصطلح derivation/ dérivation الذي نقصده هنا ليس هو الذي جاء به تشومسكي والذي مقابله في العربية التحويل، والذي عرفه جورج مونان (mounin, 2004, p. 102) في قاموس اللسانيات كالتالي:

Etant donné une grammaire, un ensemble fini de règles.

إنما نقصد الاشتقاق الذي أورده جورن مونان تحت اصطلاح dérivé، والذي يحو إلى أن يكون معجميا، وقال عنه: (mounin, 2004, p. 102)

un mot dérivé est une unité lexicale formée sur une base.

الكلمة المشتقة هي وحدة معجمية تتكون وتتشكل بإضافة لاحقة أو سابقة، ويمكننا أن نشير من خلال التعريف إلى اختلاف العربية عن الانجليزية والفرنسية من هذه الناحية، ذلك أنها لغة اشتقاقية، تمكن

الجذور المعجمية فيها من تكوين صيغ تعبيرية متعددة، بينما تتسم كل من الفرنسية والانجليزية بخاصية الإلصاق/ الإلصاقية affixation، إنها لغات إلصاقية تعمل بمبدأ السابقة واللاحقة (suffixe ou préfixe)

أسباب التطور الدلالي:

من المنظرين من يُعبّر عن هذا الأمر، بالتّغير الدلالي، وذلك لدفع لبس فهم التطور على أنّه الارتقاء فقط، وهذا منطقي، إلاّ أن التطور محكوم لدى المختصين بالارتقاء والانحطاط، والتوسع والتخصيص.

يكون التطور الدلالي على مرحلتين: أولاهما: مرحلة **الابتداع**، وتكون فردية، والأخرى مرحلة **الانتشار**، وتكون جماعية، أي الاتفاق، ولا يعني الاتفاق ههنا الحضور الفعلي للجماعة اللغوية، إنما يعني تداول واستعمال الدلالة الجديدة للفظة أي قبولها، ومعلوم في قانون اللغة أن حياة اللفظة رهينة باستعمالها، وتسمى هذه المرحلة بالقوة العاطفية، أي هي الذائقة النفسية شرحا لا مرادفا، ولا تتم هذه المرحلة إلا في صورة تدريجية تتطلب زمنا طويلا، وما يقصد بالإرادة والقصدية في التطور الدلالي مشروح كالآتي: إن القصدية تكون في الحالة الأولى الإفرادية الذاتية، ذلك أن المتكلم كما قال ابن جني: إن المتكلم إذا قويت فصاحته، وسَمَتْ طبيعته، تصرّف وارتجل ما لم يسبقه أحد قبله به، ثم إن قانون لا مُشاحة في الاصطلاح يعضد هذا، ويبقى أمر شيوع دلالة اللفظ وتداولها متروكا لذائقة الجماعة اللغوية إن قَبولا أو رفضا، ولذا فإن الدلالة في حالتها الأولى محكومة بالقصدية والإرادة، وهي في حالتها الثانية لم تزل تقترن بالذائقة والخفة (التخفيف) وسهولة النطق وسلاسة اللفظ.

أسباب التطور الدلالي:

1/ **الحاجة اللغوية،** رأينا أمثلة كثيرة عن ألفاظ انتقلت عن طريق المجاز من دلالتها الأولى إلى دلالتها الثانية، أو من الدلالة الأولى إلى المفهوم الاصطلاحي، والحق أن ذلك مقرون أساسا بالحاجة إلى التعبير عن مخترعات جديدة، من حيث أن الحضارة تحمل جانبين أحدهما مادي والآخر معنوي.

وهذا النوع سمي بالاستعارة البلاغية، إن لم تمت الدلالة الأولى، حتى إذا ماتت الدلالة الأولى سُميت بالاستعارة المعجمية، ولا تكون الاستعارة البلاغية معروفة الأصل، بينما تكون الأخرى عكسها معروفة الواضع.

2/ **الحاجة النفسية والاجتماعية:** يقوم هذا النوع على استبدال ألفاظ قديمة تحمل دلالات بدلالات جديدة لسبب قبح الأولى، أو لدلالته السلبية في عرف المجتمع والنفس البشرية، وفي القرآن الكريم والحديث أمثلة كثيرة على هذا، وهذا أسرع أنواع التطور الدلالي.

3/ **تأثير الإسلام،** قال ابن فارس، كانت العرب في جاهليتها على إرث من إرث آبائهم في لغاتهم وآدابهم ونسائكهم وقرابينهم، فلما جاء اللَّه جلَّ ثناؤه بالإسلام حالت أحوالٌ، ونسخت ديانات، وأبطلت أمور، ونقلت من اللغة ألفاظ من مواضع إلى مواضع أخر بزيادات زيدت، وشرائع شرعت، وشرائط شرطت فعفَّى الآخر الأول.

المصطلح القرآني: الإيمان، الكفر الذي يعني لغويا الغطاء والستر، الشِّرك،

المحاضرة الثانية: في اللسانيات النفسية

مرجعيات اللسانيات النفسية وخلفياتها المعرفية متعددة، منها ما انتسب إلى اللسانيات، ومنها ما هو خاص بعلم النفس، مرتبط بنظرياته، والحق أن أكثر ما يجب الانتباه إليه ههنا هو الطابع النفسي للسانيات تشومسكي والذي قامت عليه في الأساس اللسانيات العرفانية الإدراكية، ومن ثم اللسانيات النفسية.

فكرة تشومسكي كلها قائمة على البصمة النفسية للغة، ومن ذلك مصطلحاته التي أتى بها، سنمثل ههنا بداية بمصطلح **الكفاءة اللغوية**، والذي هو القدرة على اكتساب معجم لغوي كبير يمكن المتكلم من الوصول إلى المصطلح الثاني الذي وضعه تشومسكي في إطار جهازه الاصطلاحي ومنظومته المفهومية المتماسكين جدا، إنه مصطلح **التوليد**، الخاص بإنتاج أكبر عدد ممكن من الجمل الصحيحة في لغة ما، نود الإشارة ههنا إلى أن فكرة فصل النحو عن الدلالة، لا تطرح ههنا لسبب أنها خاصة بالجانب التقني من نظرية تشومسكي، الذي هو النحو.

وجب أن نشير أيضا فيما يخص تماسك هذا النظام الاصطلاحي، إلى قيام فكرة **إنتاج اللغة** على فكرة **الاكتساب** في الأساس، وأصل الانتاج هو الاكتساب والتخزين، ومنه المعجم الذهني بتعبير اللسانيات.

فكرة الملكة أيضا، أو الإبداعية: كان ابن خلدون أول من أشار للأمر، ثم فكرة البنية العميقة والبنية السطحية اللتان يحملهما الكلام، ومن ذلك يُتجه بالقول إلى أن البنية العميقة ذات أثر نفسي، وما البنية السطحية إلا صورة خارجية عن المعنى الداخلي، الذي يتشكل ذهنيا احتكاما لأن الفلاسفة يقرون بتسبيق الفكر على اللغة، والمعنى على اللفظ.

قبل تشومسكي كان لايبتنز قد تحدث عن القدرة على إنتاج هذه الجمل، بالارتكاز على عدد محدود جدا من القواعد، لقد أجرى النفسانيون تجارب مقارنة بين طفل في مرحلة اكتساب اللغة، وقرد سمي بنيم تشيمسكي محاكاة لنعوم تشومسكي، لأجل معرفة الفروقات في الاكتساب، فوجدوا أن كل الكلمات الجُملية التي ينطقها القرد، لا تعبر عن تطور ملحوظ في ذهنية التعلم واللغات، ولقد انحصرت الكلمات التي نطقها في حاجاته البيولوجية المرتبطة بالطعام، مثل: eat, banana، بينما تحمل الكلمات التي قالها الطفل دلالة على التطور في نظامه الذهني، القائم على الاستقطاب والاستنباط، لا على المحاكاة والتقليد(تتجسد هذه المرحلة لدى الطفل أساسا في الأشهر الأولى من حياته، إلى غاية الشهر السادس، ثم يبدأ في التطور تدريجيا، وتجدر الإشارة إلى أن ملاحظة الأمراض الكلامية تبتدأ من هذه السن بالضبط، وتسمى هذه المراحل، بالمناغاة، وكذا البأبأة)

توضح الفروق الذهنية في التعلم بين الطفل والقرد، على فكرة النظام التي قال بها تشومسكي، والتي مفادها أن الطفل يولد، وهو مزوّد بنظام لغوي يحمله في ذهنه، وكذا بعدم فاعلية فكرة بياجيه التي تقول بأنه يولد صفحة بيضاء، ثم نجد في القرآن الكريم: **"والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تعقلون"** ونحسب أن النظام ماثل في السمع والبصر والفؤاد، ذلك أن اصطلاحها الرئيس داخل حقلها المعرفي (التعليمية) didactics، هو المهارات اللغوية، والتي منها السّماع، قال ابن خلدون (السماع أبو الملكات اللسانية) وبه يُبتدأ التعلّم، ثم الكلام، والكتابة والقراءة.

يمكننا أن نلاحظ من خلال هذه التجربة إلى أن الأطفال عكس القردة يدركون في مرحلة متقدمة جدا أن الكلمات تنتظم مع بعضها البعض، على الرغم من عدم معرفتهم بالفرق بين الأفعال والأسماء، في

لغتهم الأم، ولذا فالطفل في مرحلته الأولى لا يستعمل فعلين متتالين، أو اسمين كذلك، إنما يستعمل فعلا واسما، أو العكس، ولا يخطئ إلاّ في القليل الناذر.

المحاضرة الثالثة: فطرية اللغة

إن فكرة الفطرية قائمة بالأساس على اكتساب الطفل للغة، لكنها تشمل أيضا كل فئات المجتمع، ذلك أنها قائمة على ما يسمى النحو العالمي universal grammar، ثم على قدرة الطفل/الإنسان على إنتاج أكبر عدد ممكن من الجمل في لغة ما لم يسمعها من قبل، تجدر الإشارة إلى أن نظرية تشومسكي قائمة على التراكيب لا على الكلمات لأن هذه الأخيرة يتم تعلم معظمها عن طريق الاستماع، والقراءة والاكتساب، لكن الجمل في حالة النحو العالمي يتم إنتاجها من خلال البناء، والاستنباط لا من خلال الاستماع، ولذا قال لم يسمعها من قبل، وفطرية اللغة ههنا يقصد بها تشومسكي فطرية النحو، أي النظام الذي يستمد المفردات من المعجم الذهني، ثم يركبها كيف يشاء من غير خلل، ولقد أوضح تشومسكي فكرته هذه أكثر حينما تعمّد الإشارة إلى فصل النحو عن الدلالة في مثال: **الأفكار الخضراء عديمة اللون تنام غاضبة، وقال إن النظام النحوي يمكن فصل عن الدلالة لسبب أنّه خاص بالتعالقات الموجود بين الكلمات شكليا، من حيث سمتها الإعرابية فقط، لكنه فيما بعد تراجع حينما أيقن أهمية السمات الدلالية للكلمة وما يقرن بها في تكوين الجملة، وإن الدلالة أصلا من مكونات النحو، ولذا قال الجرجاني بفكرة النظم مثال الجرجاني.**

لقد ربط تشومسكي أو بالأحرى أصحاب النظرية التوليدية كل المهارات اللغوية (السماع، الكلام، الكتابة، القراءة) بالجانب النفسي للغة،

إن مركز اللغة داخل الدماغ بحسب ما توصلت إليه اللسانيات العصبية لدى المتكلم المستمع المثالي بتعبير تشومسكي هو الشق الأيسر من الدماغ، بينما تشمل اللغة لدى الأطفال كل مناطق الدماغ (الأيمن والأيسر) علينا أن ننتبه إلى قصدية تشومسكي من فصل النحو عن الدلالة، لقد كان يقصد أن من خلال هذه الفكرة الفصل من ناحية تعلم النظامين، نظام النحو، ثم الدلالة على اعتبار أن اللغة نفسية باعتبار اللسانيات النفسية، وعصبية أيضا استنادا إلى اللسانيات العصبية، يستند في وصف موقع اللغة في الدماغ على حوادث فقدان اللغة لأسباب عدة ممثلة في الزهايمر مثلا، ثم الإصابات الدماغية التي تقع في الجهة اليسرى من الدماغ والتي تُفقد المتكلم اللغة جزئيا أو كليا

لقد ألغت النظرية العقلية في تعلم اللغة كل ما جاءت به السلوكية في جانب أن التعلم سلوك (تعلم اللغة بالخصوص) من حيث أن اللسانيات العصبية أثبتت أن اللغة والكلام منفصلان عن جوانب السلوك الأخرى. ذلك أن اللغة نظام عكس الجوانب السلوكية الأخرى (الأكل، الشرب...) وكل هذه السلوكات يتم اكتسابها عن طريق المحاكاة والتقليد، أما اللغة فتستند إلى المحاكاة في جزء يسير منها فقط، وهو المراحل الأولى للطفل (6 أشهر فما فوق) وما بعد ذلك تلج اللغة ما يسمى بالنظام، ومن ثم الفطرية التي تتحدث عنها تشومسكي أو القدرة على اكتساب هذا النظام، والتي هي غائبة عن الحيوان بالمطلق.

في نظرية اكتساب اللغة عند تشومسكي وإنتاجها، وغيره من التحويليين، علينا أن نلاحظ الفروق الدقيقة بين المصطلحات التي وضعها، ثم المستويات التي تنتسب إليها، ذلك أن فكرة اكتساب اللغة مشروط أولا بالاستماع، لأجل تخزين المعجم الذهني فيما يسمى الاستعداد الذهني الذي يتسم به الإنسان دون غيره، ينبغي أن نشير ههنا إلى عدم فصل المعجم عن الدلالة، ذلك أن الإنسان لا يستطيع أن يكتسب مفردة ما مفصولة عن معناها، وأصل الاكتساب في الحقيقة مرتبط بالدلالة في كل المكتسبات، يقوم الاكتساب

بالدرجة الأولى على الاستماع أعظم مهارة لغوية خُصَّ بها الإنسان، (لم يتحدث تشومسكي عنها بهذه الاصطلاحات، لقد سماها مثلا الإبداعية، القدرة، النظام لسبب أن نظريته تنحو لأن تكون عرفانية ذهنية) ثم القراءة التي تصنف ثانيا، في جانب كتساب التراكيب والقواعد (النحو الذي هو نظام أيضا) يتعلّم الإنسان قواعد اللغة وطريقة الكتـابة بالتلقين والتقليد والمحاكاة في مراحله الأولى، ثم يكتمل النظام اللغوي في ذهنه المشكل من المعجم الذهني (المفردات) إضافة إلى القواعد ليقدر بعدها على الدمج بينهما وإنتاج أكبر عدد من الجمل في لغته حتى من غير سماعها، لقد سمّى تشومسكي هذا الأمر بالإبداعية، والذي يكون من ناحية المعجم، ذلك أن القواعد النحوية والصرفية محدودة في كل لغة، وهي في شكل قوالب بسيطة في نوعين اثنين من الجمل (اسمية وفعلية) تحكمها متغيرات محدودة أيضا قابلة للتخزين. تجدر الإشارة هنا أن تشومسكي فصل النحو عن الدلالة لسبب أن الإنسان لا يخزن التراكيب في ذهنه إلا فيما يخص المحفظات الدينية والأدبية والأشعار وغيرها، إنما يتعامل مع تخزين معجم مكون من مفردات، ويبدو أن منطقة تخزين المعجم مفصولة عن منطقة تخزين النحو والقواعد، ولذلك فإننا في حالة تواصل المتكلم المستمع المثالي أمام حالة استدعاء مزدوجة، تتمثل الأولى في استدعاء المفردات، وتتمثل الثانية في استدعاء القواعد، أو العكس، ثم يتم إنتاج الجمل صوتيا، وإن حالات التقديم والتأخير، والحذف، والمراجعة، والاستبدال التي تحدث في أثناء الكلام تثبت ذلك. وحالات الاستبدال هذه تتم لأجل الوصول إلى أقصى مستوى من البلاغة في التواصل، وهو ما وصل إليه القرآن بالفعل، ذلك أنَّ معجمه مأخوذ من العربية المبينة، ومن اللَّهجات الفصيحة، لكن تركيبه، وتأليفه كما اصطلح عليه النحاة يختلف عن تركيب العرب في الجاهلية، لقد توصّل الجرجاني إلى هذا فيما يُسمّى نظرية النظم.

فكرة فصل النحو عن الدلالة من ناحية الاكتساب، ترتكز على أن النحو، يشبه قرصا مدمجا داخل الدماغ البشري، يوضع سلفا، وهو منفصل عن المعجم أو عن خبرة اللغة مثل عدّاد مثبت في الحاسوب، وفي ما يخص فطرية اللغة، اصطلح علماء اللغة على هذا الأمر "اللغة الغريزية الفطرية غير المنطوقة" وتفسير هذا قائم على أن الأطفال إذا لم يكن لهم لغة فطرية يترجمون العربية منها وإليها، فكيف يستطيعون إذن تعلم العربية، وكذلك الأمر مع الانجليزية.

المحاضرة 4: بين نظرية النظم للجرجاني، ونظرية تشومسكي

ملاحظة: ما نقوله في بعض الأحيان حين الحديث عن الاستعارة أو المجاز، أو اللغة عموما يبدو غامضا جدا لديكم، والسبب في ذلك هو وقوعكم على بعد مسافة كبيرة من العربية مثلا، ومن البلاغة بالخصوص، والعلم هكذا تراتبي ينبغي أن يسير فيه المتعلّم جزءا بجزء حتى إذا قضى على المتعب منه، وصل إلى الاستنباط الممتع، ثم إن اكتساب الانجليزية على حساب العربية أمر غلط جدا، لسبب أن اللسانيات هي نفسها في اللغتين، وكذلك سياقاتها، ومصطلحاتها...الخ وإن فهم الأمر بالعربية لميسِّر لطريق اللسانيات بالإنجليزية.

لقد تطورت اللغة مثلا حتى أصبحت غير استعارية، أي أن ما كان يبدو استعارة أصبح حقيقيا لكثرة تداوله، إن عبارة يستشيط غضبا في الإنجليزية he was burned up والعربية على السواء تدل على الاحتراق، لكنها الآن أصبحت من قبيل الحقيقة .ما قاله تشومسكي من فصل النحو عن الدلالة، صادق من ناحية الاكتساب لا من ناحية إنتاج اللغة، ذلك أنا لا نكتسب التراكيب إنما نكتسب المفردات، فكلمات من مثل، الأفكار، اللون، خضراء، عديمة، غاضبة، النوم، تكتسب منفردة، من ناحية دلالتها، ثم يكتسب النحو كنظام أيضا، وقد شبهه علماء اللغة، بقرص مضغوط يدفع داخل الدماغ، هنالك من أسند جملة

تشومسكي إلى ما يسمى الاستعارة، ذلك أن الاستعارة لا تعادي وليس نقيضة علم النحو، لأن النحو يأتي في شكل خانات في الذهن، يتم ملؤها معجميا فيما بعد، لدينا فعل، اسم، اسم، حرف، ...الخ، وحينما نعود إلى خانة المعجم سأحاول ملء هذه الخانات اعتباطيا، من غير أن أخالف الخانات الخاصة بالنحو وسأقول في جانب الفعل، شربت، ثم في جانب الاسم الأول ماء، ولحد الآن الجملة صحيحة نحويا، ودلاليا، لكنها تفتقر إلى مضاف إليه على اعتبار التعدي الذي يوجد في الفعل، وسأختار الاسم الثاني من قبيل البحر لتصبح النتيجة شربت ماء البحر، ثم في جملة أخرى سأختار أتيتك غدا، وسوف آتيك أمسِ، لقد سمي هذا الباب في النحو العربي، بباب الاستقامة من الكلام والإحالة، ذلك أن الكلام يحيل أوله إلى آخره، وآخره إلى أوله ليستقيم اللفظ والمعنى، وأنه أيضا يستدعي بعضُه بعضا، فالفعل يستدعي الفاعل غلبت الروم، والفعل يستدعي المفعول به ضرب الله مثلا، والشرط يستدعي جوابه، قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم، وهكذا إلا فيما يخص مخالفة القاعدة للقرآن الكريم، والذي هو مؤول بعضه بالمعنى، وكثيره باللهجات العربية الفصيحة.

فكرة فصل النحو عن الدلالة من ناحية الاكتساب، ترتكز على أن النحو، يشبه قرصا مدمجا داخل الدماغ البشري، يوضع سلفا، وهو منفصل عن المعجم أو عن خبرة اللغة مثل عدّاد مثبت في الحاسوب، وفي ما يخص فطرية اللغة، اصطلح علماء اللغة على هذا الأمر "اللغة الغريزية الفطرية غير المنطوقة" وتفسير هذا قائم على أن الأطفال إذا لم يكن لهم لغة فطرية يترجمون العربية منها وإليها، فكيف يستطيعون إذن تعلم العربية، وكذلك الأمر مع الانجليزية

تصحيح فكرة: فكرة اكتساب النحو: ينبغي أن نشير بداية إلى أن هناك نوعان من النحو، الأول نظام فطري غريزي كما أشار علماء اللغة من تشومسكي فما بعد، يختص بوضع ما هو مرتبط بالمعجم، أو الملء

المعجمي في مكانه بحسب كل وحدة معجمية، اسم، فعل، حرف...الخ، أما الثاني فخاص بمجموعة من القواعد التي يتم تعلّمها عن طريق الاكتساب والمحاكاة، التقليد، القراءة، الكتابة، ولذا نجد أن الطفل في مرحلته الأولى يخطئ كثيرا في هذه القواعد، فيؤنث المذكر، والعكس، وغيرها الشمس، la soleile.

وقال علماء اللغة إن النحو يشبه أسطوانة موضوعة في الذهن فطريا، مثل عداد مثبت في الحاسوب، وهذا النحو خاص بوضع الكلمات (المعجم) في القوالب الخاصة بها في الذهن، وهو بهذا الشكل اسم/فعل/اسم/حرف/ مورفيم حر/ مقيد/...، ولذا قلنا إن الطفل لا يخطئ فطريا في التركيب، لأنه إما أن يستدعي فعلا واسما، أو العكس، أو يستدعي فعلاً لوحده ككلمة جُملية، لأن الاستدعاء الذهني فطري تراتبي، لا يقوم على استدعاء شيئين متماثلين من نفس المنطقة في نفس اللحظة.

نقد نظرية تشومسكي من التراث اللغوي العربي:

كثيرة هي ملامح نظرية تشومسكي في التراث اللغوي العربي، أولها عند سيبويه في كتابه، ثم عند عبد القاهر الجرجاني في كتابيه (أسرار البلاغة، ودلائل الإعجاز) وأهم فكرة سنجدها في هذا الأمر، هي فكرة فصل النحو عن الدلالة، التي أتى على إثرها تشومسكي بجملة **"الأفكار الخضراء عديمة اللون تنام غاضبة"** وبرَّرَ من خلالها اكتساب النحو وإنتاجه لدى المتكلم المستمع المثالي، وقال إن المتكلم قادر على إنتاج جمل خاطئة دلاليا، لكنها صحيحة نحويا، وفكرة تشومسكي هذه كان سيبويه قد تطرق إليها في باب من أبواب كتبه سماه (بابُ الاستقامة من الكلام والإحالة) (الاستقامة في الكلام يُقصد بها الصحة النحوية والصرفية والدلالية، وهو ما توصل إليه الجرجاني فيما بعد وأسماه معاني النحو، ذلك أن النحو يحمل معاني عدة (الشرط

وجوابه مثلا، الاستفهام الاستنكاري في قوله تعالى (أمّن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه، بل لجوا في عنو ونفور، أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور)، يمكننا أن نمثل على هذا الأمر بقول الجرجاني إن النظم (الذي هو من نظم ينظم نظما، وهو يمثّل أكثر بالشعر، ذلك أن مصطلح النظم يقابل من جهة النثر، أي الكلام العادي، والحق أن الناظم لدى الجرجاني هو نفسه المتكلم المثالي لدى تشومسكي) قال الجرجاني (واعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك (المعاني نفسية) علمت علما لا يعترضه الشك، أن لا نظم في الكلِم(جمع كلمة) ولا ترتيب (من الرتبة) (رتبة المبتدأ، ورتبة الخبر، والفعل، والفاعل، والمفعول...) حتى يُعلَّق بعضها ببعض (من ناحية المعنى) وإذ يقول هذا نقول إنك لا تستطيع أن تأتي بجنس فاعل خارج الإنسان للفعل كتب، وقرأ، وفكّر... ثم قال (ويبنى بعضها على بعض، والبناء أحد أهم المصطلحات التي وردت في العربية، ومنه المرجع الصناعي (الخيمة، والبناء من الحجر والمدر الذي استمدت منه مصطلحات العربية من مثل السحب، والرفع، والنصب، والجر، والباب، والثقل، والخفة، والحركة، والسكون، ثم قال، وتجعل هذه بسبب من تلك (آية والله عزيز حكيم).

ثم قال (إن اللفظ تبَع للمعنى في النظم، وأن الكلِم تترتب في النطق (البنية السطحية)، بسبب ترتب معانيها في النفس(البنية العميقة) (الرتبة المعنوية الدلالية سابقة للرتبة النحوية، ولذا لا يمكن البتة فصلهما كما قال تشومسكي) ثم قال (وأنها لو خلت من معانيها حتى تتجرد أصواتاً وأصداءَ حروف، لما وَقع في ضمير، ولا هجس في خاطر، أن يجبُ فيها ترتيب ونظم، وأن يُجعل لها أمكنةٌ ومنازلُ(لدى تشومسكي يتم الأمر عن طريق الملء المعجمي، ونظام التحويلات في الجملة، مثل التقديم والتأخير، والحذف والاستبدال...

النظم: اعلم أن ليس النظمُ إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نُهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لها (الحركات) فلا تخلَّ بشيء

منها: إن الله بريء من المشركين ورسوله، إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ، ولذا قال سيبويه في باب الاستقامة من الكلام: هذا باب الاستقامة من الكلام والإحالة

فمنه مستقيم حسن، ومحال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محال كذب

فأما المستقيم الحسن فقولك أتيتك أمسُ وسآتيك غدا

وأما المستقيم الكذب، فقولك حملت الجبل، وشربت ماء البحر

وأما المستقيم القبيح فأن تضع اللفظ في غير موضوعه كأن تقول قد زيداً رأيتُ

وأما المحال الكذب فقولك سوف أشرب ماء البحر أمس.

المحاضرة الخامسة: فلسفة اللسانيات

تختص فلسفة اللسانيات، أو علوم اللغة على العموم بالارتكاز على ثلاثة محاور رئيسة هي أنطولوجيا علوم اللغة (اللسانيات) أساس علوم اللغة، عمل علوم اللغة ونمذجة تطورها التاريخي، ولذا فإننا حين الحالتين الأولين واحتكاما إلى التصور المفهومي عن مصطلح الأنطولوجيا (الوجود) سنعتبر أنفسنا أما افتراضات علمية لم تزل محلَّ خلاف بين علماء اللغة، من أمثال تشومسكي وأعلام النظرية العقلية وبين أعلام النظرية المعرفية وكذا السلوكية (نمثّل هنا بفطرية اللغة عند تشومسكي، والخلاف حولها، وطبيعة اللغة، والطبيعة الخوارزمية للقواعد، وفيما يخص أساس علوم اللغة، فإن هذا الجانب يختص بالناحية السببية للأمور التي تحتوي عليها اللغة، ذلك أن حدوث اللغة ثم العلاقة بين أجزائها لا تستند إلا على أسباب لتكونها، فعندما نقول إن الفعل في الفرنسية يتبع الفاعل في العدد، فإن ذلك يشرح وجود علامة في آخر الفعل، ومثله في

العربية في حالة الجمل الإسمية، في حين يصعب أن نتصور وجود أية علاقة سببية (علينا ههنا أن نفرق بين السببية النحوية، والسببية المتعلقة بالدلالة وبالبلاغة خصوصا، وسُمُثل ببلاغة المجاز المرسل، ونماذج من قبيل رعينا الغيث، إنما يأكلون في بطونهم نارا، الذين يأكلون الرِّبا)

***تنتمي مسائل من مثل العبارات التي يحتويها الحاسوب سلفا، من مثل أعدك أنني سأفعل في تثبيت برنامج حاسوبي معين، إلى خصوصيات اللغة عند البشر ذلك أن الحاسوب على الرغم من أنه يقدم العبارة، إلا أنه لا يستطيع أبدا أن يتضمن معنى الوعد الذي في العبارة، ومن هنا يأتي التفريق بين ما لدى البشر من القدرة، والكفاءة اللغوية عند تشومسكي وبين مختلف الأجناس الأخرى ممن لم تستطع تعلم اللغة، على الرغم من قدرة التقليد التي تمتلكها كالقردة، والببغاوات وغيرها، ولذا فإن الإبداعية خاصة بفئة البشر فقط، وهي القدرة اللامحدودة على إنتاج جمل غير محدودة انطلاقا من عدد محدود من القواعد، وفي هذا الصدد بالضبط تم انتقاد تشومسكي في اصطلاح (اللامحدود) احتكاما إلى علماء اللغة منذ القدم كانوا ينادون بأن تتسم الجملة بقدر كبير من التمام، والمحدودية، والإفادة، والخبرية، والصِّدق كذلك، وحتى النص بالخصوص في لسانيات النص وتحليل الخطاب قد اتسم بسبعة معايير تحده كيفا وكما، من بينها المقبولية، والإعلامية......، والقصدية وتتداخل ههنا القصدية بين كل من الجملة والكلام والنص، وهي تنحو بنا إلى ما يسمى علم التداولية، والذي هو خلاصة ما وصلت إليه اللسانيات بعد تشومسكي، ويهتم باللغة في الاستعمال من حيث أنها ترتبط بمستمع ومتكلم ورسالة، ولذا فإن المستمع المتكلم يختلف عن الحاسوب من ناحية الوعي والقصدية، ويمكن لحاسوب ما أن يشكل عددا لا محدودا من الجمل في لغة ما احتكاما لما يجده في خزانه اللغوي، لكنه يفتقد إلى الوعي بهذه الألفاظ، ثم إنه يُنتج احتكاما لما أدخل له من خوارزميات، وعلى الرغم من أن العقل يشبه الحاسوب في مسألة الخوارزميات حسب ديكارت إلاَّ أنه يعمل بنظام الوعي والمقام والسياق....

الوعي واللاَّوعي من إدموند هوسرل إلى جان جاك لوسركل:

إن نظرية المتبقي(اللاوعي) التي اقترحها لوسركل، والتي تختص باللغة من ناحيتها التاريخية المرتكزة على المجاز والاستعارة والتورية والكناية والمضمر وغيرها، هي نفسها نظرية هوسرل فيما يسمى الوعي باللغة أثناء الاستعمال، أو القصدية، لكنها تنتمي إلى الناحية البنيوية للغة (تزامنية وصفية) يمكننا أن نمثل على ذلك بـ(التأكيد، والنفي، وإعطاء المعنى...)ولكن هذه الأمور غير موجودة في الوعي مثلما توجد الأشياء في العالم الخارجي (فصل اللغة عن الأشياء، فصل النحو عن الدلالة، ، عن العالم، فصل الدال عن المدلول، العلاقات الاعتباطية بين أجزاء الكلام، فكرة موت المؤلف، موت الإنسان، موت الإله، الحداثة الغربية)، لأننا أمام ثنائية تتشكل من اللغة والعالم، والرابط الوحيد بينهما هو ما أسماه هوسرل بالوعي، وهو ما ينفي تماما مفهوم النظرية السلوكية لسكينر الذي يرتكز على **المثير والاستجابة**، ذلك أن القصدية ههنا تنفي أي استعمال اعتباطي في اللغة، إلاَّ في ما ندر من اللغة، (مثال، فَخَـرَّ عليهم السَّقْفُ من تحتهم، مثال من فقد إبله في الصحراء، وعندما وجدها من الفرح قال: إلهي أنت عبدي وأنا ربُّك)

يمكن الاستناد في هذه الأمور إلى كتب من مثل: جان جاك لوسركل، عنف اللغة، سيلفان أورو، فلسفة اللغة ترجمة بسام بركة، توماس سكوفل، علم اللغة النفسي، تيرنس دبليو ديكون، الإنسان/ اللغة/ الرمز.